

الكمال النبوي وأثره في أحوال التزكية عند الصحابة.

## بسم الله الرحمن الرحيم

الكثير منا يتعجب من وفرة أخلاق الصحابة واستقامة سلوكهم ، بل ويستغرب كيف تمكنوا من تلك المجاهدات! أقول : وما اجتمعت في الصحابة ساميات الآداب ، وعاليات الأخلاق ؛ إلا لما شاهدوه ولمسوه من حسن خلقه وكمال أدبه وتواضعه عليه الصلاة والسلام ، فمن جالس جانس ، ومن أجمل ما ذكر في هذا الباب:

أولاً: ما ذكره المحب الطبري . رحمه الله تعالى . أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم . كان في سفر ، وأمر أصحابه بإصلاح شاة ، فقال رجل : يا رسول الله علي ذبحها ، وقال آخر : يا رسول الله علي سلخها ، وقال آخر : يا رسول الله علي طبخها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم : (( وعلي جمع الحطب )) فقالوا يا رسول الله : نكفيك العمل ، فقال: (( قد علمت أنكم تكفوني ، ولكن أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله تعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه ))

سبل الهدى والرشاد 26/7

ويشبه هذا الموقف في كراهة حب التميز؛ وإظهاره الرغبة في المشاركة في العمل والاندماج مع جماعة الصحب ، ما جاء في المستدرك على الصحيحين للحاكم عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه قال: كنا يوم بدر نتعاقب ثلاثة على بعير ، فكان علي وأبو لبابة زميلي رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم؛ فكان إذا كانت عقبة رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يقولان له: اركب حتى نمشي فيقول: « إني لست بأغني عن الأجر منكما، ولا أنتما بأقوى على المشي مني » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه [المستدرك على الصحيحين للحاكم (6 / 59) الحديث رقم) : 2409

ثانياً: من شواهد تواضعه حرصه على قم المسجد بيده الشريفة ، فقد روى ابن أبي شيبه في مصنفه: (( أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَّبِعُ غُبَارَ الْمَسْجِدِ بِجَرِيدَةٍ )) أي يقيم المسجد بجريدة النخل . [مصنف ابن أبي شيبه (1 / 349) الحديث رقم): 4019.

ثالثاً: حله لشيأة بعض أصحابه بيده الشريفة ، ففي مسند الطيالسي عن ابنة خباب . رضي الله عنهما . أنها قالت : أنت رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بشاة ، فاعتقلها فحلبها ، وقال: (( اثنيي بأعظم اناء لكم ؛ فأتيناها بجفنة العجين ، فحلب فيها حتى ملأها ، ثم قال : اشربوا أنتم وجيرانكم )) [مسند الطيالسي (دار المعرفة) : ( ص : 231 ) ، الحديث رقم) : 1663

رابعاً: رؤيتهم لدقيق ورعه ، فقد جاء في مسند أحمد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَائِمًا ، فَوَجَدَ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِهِ ، فَأَخَذَهَا ، فَأَكَلَهَا ، ثُمَّ جَعَلَ يَتَّصِرُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ، وَفَزِعَ

لِدَلِيلِكَ بَعْضُ أَرْوَاجِهِ ، فَقَالَ : " إِنِّي وَجَدْتُ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِي فَأَكَلْتُهَا ، فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ " [مسند أحمد (11/ 329) الحديث رقم : 6720  
ويشبهه هذا الحديث ما جاء في صحيح البخاري ، عن أنس . رضي الله عنه . قال : مر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بتمرة في الطريق ، قال : « لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها » [صحيح البخاري (3/ 125) الحديث رقم : 2431].  
ولما أراد الحسن بن علي . رضي الله عنه . وهو صبي صغير أن ياكل تمرة وقعت بيده ، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم : (( كَيْخَ كَيْخَ - لِيَطْرَحَهَا ثُمَّ قَالَ - أَمَا شَعَرْتَ أَنَا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ )) [صحيح البخاري (6/ 3) الحديث رقم : 1491].  
وفي هذه النصوص من فقه التزكية : الدعوة إلى الورع عن المحرمات والشبهات وإن قلت ؛ وتربية الأمة على ذلك ، وحمل الناشئ على التخلق بالورع من البواكير الأولى.  
أقول : وعلى هذه الأحاديث وأمثالها تأسس حكم الورع وتفريعاته عند علماء التزكية.

**خامساً :** كان عليه الصلاة والسلام القدوة لهم في كل عمل صالح ؛ والسابق إلى كل منقبة وكمال ، ففي إدمان الصيام جاء في صحيح البخاري عن عائشة . رضي الله عنها . قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يصوم حتى نقول : لا يفطر .. " [صحيح البخاري (3/ 38) الحديث رقم : 1969]  
وهو محل الشاهد ؛ ولقد ثبت عنه مواصلة الصيام كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد . رضي الله عنه . أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لا تواصلوا ، فأياكم إذا أراد أن يواصل ، فليواصل حتى السحر » ، قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال : « إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني ، وساق يسقين » [صحيح البخاري (3/ 37) الحديث رقم : 1963].

• وفي القيام واستدامته: روى الإمام البخاري عن أم المؤمنين عائشة . رضي الله عنها : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : « أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ، فلما كثر لحمه صلى جالسا ، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع » [صحيح البخاري (6/ 135) الحديث رقم : 4837].

• وأما خوفه من الله تعالى: فقد جاء في مستدرک الحاكم بإسناد صحيح؛ عَنْ مُطَرِّفٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: « أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيْرٌ كَأَزِيْرِ الْمِرْجَلِ » يَعْنِي: يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

[المستدرک على الصحيحين للحاكم (2/ 482) الحديث رقم : 926] ، المرجل : إناء يغلى فيه الماء، سواء كان من نحاس وغيره، وله صوت عند غليان الماء فيه.  
وفيه من فقه التزكية : حرصه على قيام الليل ؛ وخشوعه في صلاته ، وخوفه من الله تعالى مع أنه أحب مخلوق عند الله تعالى ؛ فبان من ذلك : ضرورة خشية المولى ومخافته لكل سالك.

•وأما كرمه ولطيف عشرته ومحاسن أخلاقه : فحدث ولا حرج فقد روى الحارث ابن أبي أسامة، والخرائطي ، وابن عساكر ، وأبو الحسن بن الضحاك ، عن عمرة بنت عبد الرحمن - رحمهما الله تعالى - قالت: سألت عائشة - رضي الله تعالى عنها - كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا مع نسائه ، قالت: كان كرجل من رجالكم ، إلا أنه كان أكرم الناس ، وأحسن الناس خلقاً ، كان ضحاكاً بساماً صلى الله عليه وسلم . [انظر : في تخريجها سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للعلامة المحدث الصالحي] (9 / 69).

وفي صحيح مسلم عن أنس - رضي الله عنه - ، قَالَ : مَا سُئِلَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُ رَجُلٌ ، فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ ، أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عِطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ . [ صحيح مسلم (74 / 7) الحديث رقم : 6160 ].

فهذا التواضع الجم ، والخلق الراسخ الحسن ، والورع البالغ الدقيق ، والعبودية الخاشعة ، والدعوات الضارعة ، والشمائل الكريمة ، هي سر نجاح الصحابة في سيرهم إلى الله تعالى ، وسر استقامة سلوكهم ، وتحقق رسوخهم في جميع مقامات التزكية ؛ فقد شاهدها حاضرة أمامهم في رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ فرغبوا في الاتصاف بها ، والتسابق إليها ، رغبة في الانصبغ بصبغة الكمال والجمال {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} [البقرة: 138] ؛ واقتداء بمصدر الخير والفضيلة المطلقة {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

فبان من جميع ذلك أنه لا نجاح إلا بقدوة ؛ ولا كمال إلا بمجالسة أهل الكمال ، ومن جالس جانس ، هذا وباللَّه التوفيق.

بقلم / منير بن سالم بازهير